ISSN:2583-2379

المجلد الخامس - العدد الثاني　　مجلة البخاري للعربية والدراسات الإسلامية　　يوليو – ديسمبر 2025

جماليات الرسالة التربوية في نشيدة الشاعر العالم الحاج النحوي أي ال متوا و ابا الفاسي رحمه الله

Mr. FEROZEKHAN S
Research Scholar,
P.G & Research Department of Arabic,
The New College (Autonomous) Chennai – 600 014, India.
Email: ferozekhan56@gmail.com

فيروزخان
الباحث، قسم البحوث والدراسات العربية العليا،
الكلية الجديدة (حكم ذاتي)،
شنائي، ولاية تامل نادو، الهند.

Dr. K MUJEEB RAHMAN
Research Supervisor&Assistant Professor
P.G & Research Department of Arabic,
The New College (Autonomous) Chennai - 600 014, India.
Email: profdrmujeeb@gmail.com

الدكتورك .مجيب الرحمن
الأستاذ المساعد، بقسم البحوث والدراسات العربية العليا،
الكلية الجديدة (حكم ذاتي)، شنائي،ولاية تامل نادو، الهند.

Abstract:

Religious poetry represents one of the most significant literary genres that has contributed to shaping Islamic consciousness throughout the ages. It has not been confined to aesthetic expression alone; rather, it has served as a means of disseminating doctrinal and moral values, strengthening love for the Prophet ﷺ, and venerating scholars and righteous figures. This form of poetry has been closely associated with educational and Sufi environments, where it has been employed in lodges, schools, and circles of remembrance as a tool for moral and spiritual التربية (tarbiyah and tazkiyah), as well as a powerful medium for emotional and spiritual influence.

Among the forms of religious poetry that gained widespread popularity in Muslim societies are religious chants (anāshīd), distinguished by the simplicity of their language, the strength of their rhythm, and their ability to reach diverse segments of society, both elite and common alike. Scholars and educators recognized the value of this literary form and employed it in teaching, disseminating religious knowledge, and cultivating love for knowledge and its bearers within the hearts of learners.

In the Indian subcontinent—particularly in the region of Tamil Nadu—religious schools played a prominent role in integrating Islamic sciences with Sufi spiritual training. Among the most notable of these institutions is the Hamidiyya School,which has been noted for its religious chants as an integral part of its educational methodology. This school produced a rich ‘chant tradition’ that reflects its vision of harmonising the Sharīʿah with spiritual truth (ḥaqīqah), and uniting knowledge with practice.

The chant “Our Master Imam al-Bukhārī”, composed by the scholar and poet al-Ḥājj al-Naḥwī Ay al-Mutū Wābā al-Fāsī (may God have mercy on him),

stands as a distinguished example of this tradition. It combines praise of Imam al-Bukhārī and exaltation of his scholarly stature with a spiritual linkage to the Muhammadan light and the sacred chain of saints and righteous figures. Hence, the importance of studying this chant lies in its artistic beauty, its doctrinal and educational dimensions, and its role in strengthening love for the Prophetic Sunnah in the hearts of its audience.

This study aims to address key questions, such as: How are the aesthetic features of Prophetic praise manifested in this chant? What are the defining characteristics of the image of Imam al-Bukhārī as portrayed by the poet? And how does the chant contribute to fulfilling an educational and pedagogical function within the context of the Hamidiyya School?

Key words:

Imam al bukhari , Hamidiya hymns ,Sufism ,praise ,Islamic heritage , Muthu waba Al Aalim Al Fasi,poetry.

ملخّص البحث:

يمثل الشعر الديني أحد أهم الأجناس الأدبية التي أسهمت في تشكيل الوعي الإسلامي عبر العصور، إذ لم يكن مقصورًا على التعبير الجمالي، بل كان وسيلة لبثّ القيم العقدية والأخلاقية، وترسيخ محبة النبي صلى الله عليه وسلم، وتعظيم العلماء والصالحين. وقد ارتبط هذا اللون من الشعر ارتباطًا وثيقًا بالبيئة التعليمية والصوفية، حيث استُخدم في الزوايا والمدارس وحلقات الذكر بوصفه أداة للتربية والتزكية، إلى جانب كونه وسيلة للتأثير الوجداني.

ومن بين أشكال الشعر الديني التي لقيت رواجًا واسعًا في المجتمعات الإسلامية «الأناشيد الدينية»، التي تمتاز بسهولة ألفاظها، وقوة إيقاعها، وقدرتها على الوصول إلى مختلف شرائح المجتمع، سواء من الخاصة أو العامة. وقد أدرك العلماء والمربون قيمة هذا اللون الأدبي، فوظفوه في التعليم ونشر المعارف الشرعية، وفي غرس محبة العلم وأهله في القلوب.وفي شبه القارة الهندية، ولا سيما في تامل نادو، نشأت مدارس دينية كان لها دور بارز في الجمع بين العلوم الشرعية والتربية الصوفية، ومن أبرزها المدرسة الحامدية التي عُرفت بعنايتها بالأناشيد

بوصفها جزءًا من منهجها التربوي. وقد أنتجت هذه المدرسة تراثًا إنشاديًا غنيًا، يعكس رؤيتها القائمة على الجمع بين الشريعة والحقيقة، وبين العلم والعمل.

ويُعد نشيد «سيدنا الإمام البخاري» للشاعر العالم الحاج النحوي أي ال متو وابا الفاسي رحمه الله أحد النماذج المتميزة لهذا التراث، إذ يجمع بين مدح الإمام البخاري وتعظيم مكانته العلمية، وبين ربطه بالنور المحمدي والسلسلة الروحية للأولياء والصالحين. ومن هنا تنبع أهمية دراسة هذا النشيد، للكشف عن جمالياته الفنية، وأبعاده العقدية والتربوية، ودوره في ترسيخ محبة السنة النبوية في نفوس المتلقين.

ويهدف هذا البحث إلى الإجابة عن عدد من الأسئلة، من أبرزها: كيف تتجلى جماليات المديح النبوي في هذا النشيد؟ وما ملامح الصورة التي يرسمها الشاعر للإمام البخاري؟ وكيف يسهم النشيد في أداء وظيفة تربوية وتعليمية داخل سياق المدرسة الحامدية؟

الكلمات المفتاحية:

الإمام البخاري، الأناشيد الحامدية، التصوف، المديح، التراث الإسلامي، موتو وابا العالم الفاسي، الشعر.

مدخل: الإمام البخاري ومكانته في الوعي الإسلامي

الإمام محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله (١٩٤–٢٥٦هـ) هو أحد أعلام الأمة الإسلامية، وإمام من أئمة الحديث الذين حفظ الله بهم سنة نبيه صلى الله عليه وسلم. وقد اشتهر بكتابه «الجامع الصحيح»، الذي تلقته الأمة بالقبول، حتى قال العلماء: أصح كتاب بعد كتب لله صحيح البخاري. ولم يكن هذا القبول وليد الصدفة، بل نتيجة لمنهج علمي صارم اتبعه الإمام في نقد الأسانيد وتمحيص الروايات.

وقد جمع الإمام البخاري بين صفات عديدة جعلته نموذجًا للعالم الرباني، فهو حافظ متقن، وفقيه بصير، وزاهد ورع، كثير العبادة، شديد التواضع. وهذه الصفات مجتمعة أسهمت في تشكيل صورته في الوعي الإسلامي بوصفه عالمًا يخدم الدين بعلمه وسلوكه معًا.

ومن هنا، لم يقتصر حضور الإمام البخاري على كتب الحديث والفقه، بل امتد إلى الأدب والشعر والإنشاد، حيث أصبح رمزًا للنور والهداية، ومثالًا يُحتذى في طلب العلم والإخلاص فيه. وقد وجد الشعراء في شخصيته مادة خصبة للتعبير عن معاني التعظيم والتقديس العلمي، وربطه بالمديح النبوي، باعتبار أن علمه إنما هو فرع عن علم النبي صلى الله عليه وسلم.

ويأتي نشيد الشاعر العالم الحاج النحوي أي ال متو وابا الفاسي رحمه الله ليعبر عن هذه الرؤية بوضوح، إذ يصوّر الإمام البخاري بوصفه بدرًا منيرًا في سماء الأمة، وكنزًا للعلوم، وملجأً للحائرين، وحارسًا للسنة المطهرة.

شرح النشيد وتحليل مقاطعه:

القسم الأول: إشراق البدر وكمال الإمام

بَدَا بَدْرٌ قَدْضَاءَ صَدْرٌ حَازَ كَمَالاً

بِلَا انْصِرَامْ سَيِّدُنَا بُخَارِيْ إِمَامْ

دُرَّةُ التِّيجَانْ ذِرْوَةُ الْعِرْفَانْ شَيْخُ أُولِي الْحِدْثَانْ قُرَّةُ الْأَجْنَانْ

مُزْنَةُ الرَّحْمَانْ نِعْمَةٌ مِنْ دَيَّانْ مِنْ رَبِّنَا مِنْحَةٌ لِلْأَدْيَانْ

كَالْمَطَرِ لِلْأَشْجَارِ كَالْفَوْحِ فِي الْأَزْهَارِ هُمَامْ سَيِّدُنَا بُخَارِيْ إِمَامْ

يفتتح الشاعر نشيده بصورة بديعة ذات دلالة رمزية عالية حين يشبّه الإمام بالبدر الذي بدا في السماء، والبدر في الثقافة العربية والإسلامية رمز للكمال والضياء والهداية. فقولُه بدا بدر لا يُراد به مجرد الظهور، بل ظهور نورٍ يبدّد الظلمات ويهدي الحائرين. وهذا التوظيف البلاغي ينسجم مع مكانة الإمام البخاري في الأمة، إذ كان ظهوره العلمي إيذانًا بمرحلة من الضبط والدقة في نقل الحديث النبوي.

أما قوله قد ضاء صدر فهو كناية عن صفاء القلب ونقاء السريرة، إذ الصدر المضيء هو صدر امتلأ بالإيمان واليقين، وتخلّص من الشبهات والأهواء. وفي هذا الوصف إشارة إلى أن الإمام البخاري لم يكن عالمًا حافظًا فحسب، بل كان صاحب قلب سليم، وهو شرط أساس لبركة العلم وثماره. فالعلم في التصور الإسلامي ليس مجرد تحصيل ذهني، وإنما نور يقذفه الله في القلب.

ويؤكد الشاعر هذه المعاني بقوله حاز كمالًا بلا انصرام، أي أن كمال الإمام كمال متصل غير منقطع، يشمل جوانب متعددة: علمية، وأخلاقية، وروحية. وهذا التوصيف يتوافق مع ما أجمع عليه علماء الأمة من أن الإمام البخاري بلغ درجة عالية من الإتقان في الحديث، حتى صار مرجعًا لا يُستغنى عنه.

ثم ينتقل الشاعر إلى سلسلة من الأوصاف المتتابعة: دُرَّةُ التيجان، ذروة العرفان، شيخ أولي الحدثان، قرة الأجنان. وهذه التراكيب المتتابعة تقوم على أسلوب التراكم البلاغي الذي يهدف إلى إبراز عظمة الموصوف من زوايا مختلفة. فكونه درة التيجان يعني أنه زينة العلماء وأشرفهم، كما أن الدرّة أغلى ما في التاج. أما ذروة العرفان فتعني أنه بلغ أعلى درجات المعرفة بالله تعالى، وهذا يربط علمه الظاهر بالمعرفة الباطنة.

ووصفه بشيخ أولي الحدثان يدل على كونه مرجعًا للأئمة والمحدثين، فهو شيخ الشيوخ في هذا الفن، ومنه يستمدون المنهج والدقة. أما قرة الأجنان فتعني أنه موضع سرور وطمأنينة للقلوب، إذ يجد المؤمنون في تراثه سكينة وثقة بصحة ما ينقل عن رسول الله ﷺ.

ويستمر الشاعر في توسيع دائرة الدلالات بقوله مُزْنَةُ الرحمن نعمة من ديان من ربنا منحة للأديان. فالمزنة هي السحابة الممطرة، وفي هذا تشبيه بليغ يدل على أن الإمام سبب في نزول خير كثير على الأمة، كما أن المطر سبب في إحياء الأرض. ووصفه بأنه منحة للأديان يشير إلى أن نفعه لم يقتصر على طائفة أو جماعة، بل شمل جميع المسلمين، بل تجاوز ذلك إلى خدمة الإنسانية من خلال حفظ السنة.

ثم تأتي صورة أخرى ذات طابع حسي جميل: كالمطر للأشجار كالفوح في الأزهار. فالمطر سبب حياة الأشجار، والفوح سبب جمال الأزهار وعطرها. والمعنى أن علم الإمام سبب حياة القلوب، كما أن أثره طيب منتشر في الآفاق. وهذا التصوير يجمع بين عنصر الإحياء وعنصر الجمال، ليؤكد أن علم الإمام نافع ومؤثر في الوقت ذاته.

ويختم الشاعر هذا المقطع بنداء يتكرر في النشيد: همام سيدنا بخاري إمام. وكلمة همام تدل على العلو في الهمة والشجاعة في الطلب، وهي صفة لازمة للإمام الذي قطع آلاف الأميال في سبيل جمع الحديث. والتكرار هنا ليس حشوًا، بل أسلوب فني يرسّخ اسم الإمام في ذهن السامع، ويجعل النشيد يدور حول محوره المركزي: تعظيم الإمام البخاري بوصفه إمامًا للأمة.

ومن خلال هذا القسم يتضح أن الشاعر قد بنى صورة متكاملة للإمام تجمع بين النور والكمال، وبين العلم والعرفان، وبين النفع والجمال. وهذا التوازن يعكس رؤية المدرسة الحامدية التي ترى أن العالم الكامل هو من جمع بين ظاهر الشريعة وباطن الحقيقة، وهو ما ينطبق تمام الانطباق على شخصية الإمام البخاري رحمه الله.

القسم الثاني: الجهاد العلمي والعملي في سبيل الإسلام

بَذَلَ الْإِعْلَاءَ الْإِسْلَامِ جُهْدَهُ مِنْ صِغْرِهِ جَاهَدَ فِي اللَّهِ

حَقَّ جِهَادِهِ تِبَعًا إِلَى كِبَرِهِ وَشَيَّدَ دِينًا مَعَ النَّصْرِ

كَالدُّرَرِ فِي الْأَصْدَافِ كَالْبَدْرِ فِي الْأَشْرَافِ فِخَامْ سَيِّدُنَا بُخَارِيْ إِمَامْ

يركّز هذا القسم من النشيد على إبراز البعد الجهادي في حياة الإمام البخاري رحمه الله، غير أن الجهاد هنا لا يُقصد به القتال فحسب، بل الجهاد بمعناه الأشمل الذي يتضمن مجاهدة النفس، وبذل الجهد في طلب العلم، والصبر على المشقة في سبيل حفظ الدين ونقله للأجيال. فالشاعر حين يقول: بذل لإعلاء الإسلام جهده يقدّم الإمام نموذجًا للعالم الذي سخّر حياته كلها لخدمة الإسلام، دون أن يدّخر طاقة أو وقتًا.

ويُلفت النظر قوله: من صغره جاهد في الله حق جهاده، فهذه العبارة تشير إلى أن طريق العلم عند الإمام بدأ مبكرًا، وأن اهتمامه بالحديث والسنة لم يكن وليد مرحلة متأخرة، بل كان توجهًا أصيلًا رافقه منذ نعومة أظفاره. وهذا المعنى يتوافق مع ما هو مشهور من سيرته، حيث حفظ القرآن صغيرًا، وبدأ سماع الحديث في سن مبكرة، ثم انطلق في رحلاته العلمية الواسعة.

إن إضافة عبارة حق جهاده تحمل دلالة قرآنية عميقة، إذ تستحضر قول الله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾، وكأن الشاعر يريد أن يضع الإمام البخاري في مصاف أولئك الذين جسّدوا هذا الأمر الإلهي عمليًا، فجعلوا حياتهم كلها ميدانًا للجهاد العلمي.

ثم يقول: تبعًا إلى كِبَره، وهي عبارة تؤكد الاستمرارية والثبات، فالإمام لم يضعف عزمه مع تقدّم السن، ولم يفتر نشاطه، بل ظل ملازمًا للعلم والتعليم والتصنيف حتى آخر عمره. وهذا الاستمرار دليل على صدق النية، لأن العمل إذا كان لله دام وثبت، بخلاف ما كان لغيره.أما قوله: وشيّد دينًا مع النصر فيشير إلى أن الإمام أسهم في

بناء صرح الدين من خلال حفظ السنة النبوية، لأن السنة هي البيان العملي للقرآن الكريم، وحفظها حفظ للدين نفسه. وكلمة شيّد توحي بالبناء المتين الراسخ، وكأن الإمام وضع لبنة أساسية لا يمكن الاستغناء عنها في هيكل العلوم الإسلامية.

ويستخدم الشاعر صورة بلاغية جميلة حين يقول: كالدرر في الأصداف، فالدرّة تكون مخفية داخل الصدفة، ولا تُنال إلا بعد تعب وجهد. وهذا يشبه حال الأحاديث الصحيحة التي جمعها الإمام البخاري؛ فقد استخرجها من بين آلاف الروايات بعد تمحيص وتدقيق، حتى أخرجها في صورة نقية صافية. فكل حديث في صحيحه يشبه درّة ثمينة استُخرجت بعناية فائقة.

ثم يعزز الشاعر الصورة بقوله: كالبدر في الأشراف، فكما أن البدر يعلو في السماء فيراه الجميع، كذلك ارتفعت مكانة الإمام بين العلماء والأشراف، حتى صار اسمه مقترنًا بالإمامة والريادة في علم الحديث. وهذا التشبيه يعيدنا إلى صورة البدر في مطلع النشيد، مما يخلق انسجامًا فنيًا بين بداية النشيد ومقاطعه اللاحقة.ويختم الشاعر هذا القسم بقوله: فِخام سيدنا بخاري إمام. وكلمة فخام تدل على العظمة والرفعة والمهابة، وهي صفة تليق بمن جمع بين الجهاد العلمي والصدق والإخلاص. والتكرار المستمر لعبارة سيدنا بخاري إمام يحمل وظيفة تربوية، إذ يرسّخ في نفس السامع تعظيم العلماء وتوقيرهم، وهو من القيم الأساسية في الثقافة الإسلامية.

ومن خلال هذا القسم تتجلى صورة الإمام البخاري بوصفه مجاهدًا في ميدان العلم، لا يعرف الكلل ولا الملل، وأن عظمته لم تأتِ من فراغ، بل كانت ثمرة جهد طويل وتضحية كبيرة. وهذا المعنى يحمل رسالة واضحة لطلاب العلم في كل عصر: أن الوصول إلى مراتب الإمامة لا يكون إلا بالصبر والمثابرة والإخلاص.

القسم الثالث: الإمام كنزُ العلوم وحافظُ الحديث

كَنْزُ الْعُلُومِ مَخْزَنُ الْفَهْمِ فِنْكَ مِنَ الْحِكَمِ مَنْجَى الْهِيَامِ

مَلْجَأُ الشِّيَمِ أَحْفَظُ الْحُدَّاثِ وَأَمْلَحُ كَلِمِ أَحَادِيثِ كَادِيَمِ

فِي الْأَعْطِيَةِ أَنْبَلُ نُبْلًا جِسَامْ سَيِّدُنَا بُخَارِيْ إِمَامْ

يركّز هذا القسم من النشيد على إبراز المكانة العلمية الفريدة للإمام البخاري رحمه الله، من حيث كونه جامعًا للعلم، ومتقنًا للفهم، وصاحب ملكة راسخة في إدراك المقاصد والمعاني. فالشاعر لا يكتفي بوصفه حافظًا للنصوص، بل يقدّمه بوصفه كنز العلوم، وهي عبارة توحي بالثراء العلمي الهائل، وبأن علمه لا ينفد ولا ينحصر في مجال واحد.

وقوله: مخزن الفهم يدل على أن الإمام لم يكن ناقلًا للحديث فحسب، بل كان صاحب فهم عميق لدلالاته، وقادرًا على الربط بين النصوص، واستخراج الأحكام، وإدراك مقاصد الشريعة. وهذا المعنى مهم جدًا في الدراسات الحديثية، لأن الحفظ وحده لا يكفي، بل لا بد من الفهم الذي يهدي إلى التطبيق الصحيح.

ثم تأتي عبارة: فنك من الحكم لتشير إلى أن الإمام بلغ درجة عالية من الحكمة، وهي ثمرة الجمع بين العلم والعمل. فالحكمة في التصور الإسلامي ليست مجرد ذكاء، بل هي نور يقذفه الله في القلب، يميّز به صاحبه بين الحق والباطل، والصواب والخطأ.أما قوله: منجى الهيام فيحمل دلالة روحية عميقة، إذ يصوّر علم الإمام بوصفه سفينة نجاة لمن تاه في بحار الشبهات والانحرافات الفكرية. فالأحاديث الصحيحة التي جمعها الإمام تشكّل مرجعًا موثوقًا يهتدي به المسلم في عبادته وسلوكه وعقيدته.

ويواصل الشاعر تصويره بقوله: ملجأ الشيم، أي أن الإمام ملجأ لأصحاب الأخلاق الكريمة، أو أن علمه يغرس في النفوس مكارم الأخلاق. وهذا يبيّن أن وظيفة الحديث النبوي لا تقتصر على بيان الأحكام، بل تشمل تهذيب السلوك وبناء الإنسان الصالح.ثم يصفه بقوله: أحفظ الحداث، أي أكثر العلماء حفظًا للحديث، وهي شهادة صريحة بتفوّقه في هذا الفن. والحفظ هنا ليس مجرد تكديس للمرويات، بل حفظ مقرون بالتمييز والنقد والتمحيص، وهو ما اشتهر به الإمام البخاري.

ويضيف الشاعر وصفًا جماليًا آخر بقوله: وأملح كلم أحاديث كاديم، أي أن ألفاظ الأحاديث التي يرويها الإمام في غاية الجمال والوضوح، وأنها كالماء العذب القديم في صفائه ونقائه. وهذا التشبيه يجمع بين البعد الجمالي والبعد المعرفي، فالأحاديث ليست صحيحة فحسب، بل جميلة في صياغتها ومؤثرة في معناها.أما قوله: في الأعطية أنبل نبلًا جسام فيشير إلى كرم الإمام العلمي، فهو يعطي العلم بسخاء، وينشره بين الناس دون بخل أو احتكار. والنبل هنا يدل على رفعة الأخلاق وسمو النفس، مما يعكس صورة العالم الرباني الذي يجمع بين العلم والخلق.

ويختم الشاعر هذا القسم بتكرار اللازمة: سيدنا بخاري إمام، وهي عبارة تؤكد أن جميع هذه الصفات تصب في معنى واحد، هو إمامة الإمام البخاري في علم الحديث وفي سلوك العلماء.ومن خلال هذا القسم تتجلّى صورة الإمام البخاري بوصفه موسوعة علمية متكاملة، لا يقتصر عطاؤه على جانب واحد، بل يشمل الحفظ والفهم والحكمة والتربية. وهذا ينسجم مع الرؤية الصوفية التي ترى أن العالم الكامل هو من جمع بين ظاهر العلم وباطنه، وبين المعرفة والسلوك.

كما يحمل هذا القسم رسالة ضمنية إلى طلاب العلم في المدرسة الحامدية وغيرها، مفادها أن الاقتداء بالإمام البخاري لا يكون بمجرد الإعجاب به، بل بالسير على منهجه في الجمع بين الحفظ والفهم، وبين العلم والعمل، وبين المعرفة والتقوى.

القسم الر ابع: الانتماء الروحي والمدرسة الحامدية

نَحْنُ مَعَاشِرُ حَامِدِيَّة عَسَاكِرُ قَادِرِيَّة فَرَحًا سُرُورًا
مَرْحَبْنَا كُمْ لِحَلْقَةٍ نَبَوِيَّة وَأَشْدَى حُصُونِ مِسْكِيَّة كَالنُّجُومِ
فِي الْأَضْوَاءِ أَحْسَنُ بُقْعَاتِ الْأَنَامْ لِسَيِّدِنَا بُخَارِيْ إِمَامْ

يمثّل هذا القسم انتقالًا لافتًا في بنية النشيد من الحديث عن شخصية الإمام البخاري بوصفه فردًا عظيمًا، إلى الحديث عن الجماعة التي تنتسب إلى منهجه علمًا وروحًا، وفي مقدمتها المدرسة الحامدية. فالشاعر هنا لا يكتفي بتمجيد الإمام، بل يبيّن كيف أصبح محورًا لهوية جماعية، تتجسّد في جماعة تربوية تجمع بين العلم الشرعي والتزكية الروحية.

وقوله: نحن معاشر حامدية إعلان صريح عن الانتماء، وهو انتماء لا يقوم على العصبية الضيقة، بل على الاشتراك في القيم والمبادئ والمنهج. فالمدرسة الحامدية – كما يفهم من سياق النشيد – ليست مجرد مؤسسة تعليمية، بل هي كيان روحي وفكري يهدف إلى تخريج طلاب علم يحملون نور السنة وأخلاق التصوف الصحيح.

ثم يضيف الشاعر: عساكر قادرية، وفي هذا التعبير بعدٌ صوفي واضح، إذ يشير إلى الانتماء إلى الطريقة القادرية، وهي من أعرق الطرق الصوفية في العالم الإسلامي، والمعروفة بتركيزها على التمسك بالكتاب والسنة،

والتربية على الذكر والإخلاص وخدمة الخلق. وكلمة عساكر توحي بالانضباط والتنظيم، وكأن الشاعر يصوّر أتباع المدرسة الحامدية جنودًا في ميدان التربية والإصلاح.

ويصف حالهم بقوله: فرحًا سرورًا، فيدلّ على أن هذا الانتماء ليس ثقيلًا أو قسريًا، بل هو مصدر سعادة وطمأنينة. فالعمل في مجال الدعوة والتعليم، حين يكون خالصًا لله، يتحوّل إلى لذة روحية قبل أن يكون واجبًا شرعيًا.

أما قوله: مرحبناكم لحلقة نبوية فيكشف عن طبيعة النشاط العلمي في المدرسة الحامدية، وهو الارتباط بحلقات العلم النبوي، أي مجالس الحديث والسيرة والتفسير والفقه. فهذه الحلقات تمثّل الامتداد العملي لمنهج الإمام البخاري، الذي جعل السنة محورًا لكل نشاط علمي.

ويأتي بعد ذلك قوله: وأشدى حصون مسكية كالنجوم في الأضواء، وهو تصوير بلاغي جميل للمجالس العلمية والروحية، إذ يشبّهها بالحصون العطرة، أي الأماكن المحصّنة بنور الإيمان، التي تفوح منها رائحة الذكر والطاعة. وتشبيهها بالنجوم في الأضواء يدل على أنها منارات هداية، يهتدي بها السالكون في ظلمات الحياة.

ثم يختم الشاعر بقوله: أحسن بقعات الأنام لسيدنا بخاري إمام، فيشير إلى أن هذه المجالس وهذه المؤسسات تُعدّ من أفضل بقاع الأرض، لأنها تُحيي ذكر الإمام البخاري ومنهجه، وتغرس محبته في القلوب. وهذا يعكس رؤية صوفية ترى أن شرف المكان ينبع من شرف العمل الذي يُقام فيه.

ومن خلال هذا القسم تتجلّى الوظيفة الجماعية للنشيد، فهو لا يخاطب الفرد فقط، بل يخاطب الجماعة، ويعمل على ترسيخ هوية مشتركة قائمة على حب السنة وتعظيم علمائها. وهذه الوظيفة ذات أهمية كبيرة في سياق المدارس الدينية في تامل نادو وغيرها، حيث تشكّل الأناشيد وسيلة فعّالة لبناء الوعي والانتماء.

كما يظهر في هذا القسم التوازن بين التصوف والحديث، فالشاعر يجمع بين ذكر الطريقة القادرية وذكر الإمام البخاري، وكأنه يريد أن يؤكد أن التصوف الحقيقي لا ينفصل عن السنة، وأن محبة الأولياء لا تتعارض مع تعظيم علماء الحديث، بل هما طريقان يلتقيان في مقصد واحد هو مرضاة الله.

ويحمل هذا القسم أيضًا رسالة إصلاحية معاصرة، مفادها أن الأمة تحتاج إلى مؤسسات تربوية تجمع بين العلم والتزكية، وتربّي أجيالًا قادرة على مواجهة التحديات الفكرية والأخلاقية بروح متوازنة، كما فعلت المدرسة الحامدية.

وبذلك يتضح أن هذا القسم لا يقتصر على التعريف بجماعة معينة، بل يقدّم نموذجًا حضاريًا للتربية الإسلامية، يستمد جذوره من السنة النبوية، ويتجسّد في محبة الإمام البخاري ومنهجه.

القسم الخامس: مركزية الصلاة على النبي ﷺ في النشيد

صَلِّ وَسَلِّمْ أَزْكَى الصَّلَاةِ وَأَنْمَى التَّسْلِيمِ لِلنَّبِيِّ طه خَيْرِ الرُّسُلِ

يَا حَيُّ قَيُّومُ وَآلٍ صِحَابٍ أَعْلَامٍ وَالْقُطْبِ الْأَعْظَمِ الْأَشْهَرِ

ثُمَّ أَوْلِيَاءٍ كِرَامْ سَيِّدُنَا بُخَارِيْ إِمَامْ

يمثّل هذا القسم قلبًا روحيًا نابضًا داخل النشيد، إذ ينتقل فيه الشاعر من الحديث عن الإمام البخاري ومكانته العلمية والروحية، إلى التأكيد على الأصل الذي استمدّ منه الإمام نوره ومنهجه، وهو رسول الله ﷺ. فكل علم حديثي، وكل جهد في حفظ السنة، لا يمكن أن يُفهم بمعزل عن مقام النبوة، ولذلك جاءت الصلاة على النبي في هذا الموضع بوصفها محورًا أساسيًا في بنية النشيد.

وقوله: صلِّ وسلِّم أزكى الصلاة وأنمى التسليم يحمل دلالة على طلب أكمل أنواع الصلاة وأتمّ صور التسليم، فالأزكى هو الأطهر والأكمل، والأنمى هو الأكثر بركة ونماءً. وكأن الشاعر يريد أن يربط مدح الإمام البخاري بأعلى مراتب التعظيم للنبي ﷺ، لأن الإمام إنما نال شرفه بخدمته لحديث رسول الله.

ثم يخصّ النبي بالذكر بقوله: للنبي طه خير الرسل. ولفظة طه من الأسماء التي ارتبطت بالمدح النبوي في التراث الصوفي، وهي تشير إلى الطهارة والكمال والصفاء. ووصف النبي بأنه خير الرسل يؤكد مركزية العقيدة الإسلامية في تفضيل النبي محمد ﷺ على سائر الأنبياء، وهو معنى متجذّر في القرآن والسنة.

بعد ذلك ينتقل الشاعر إلى الدعاء بقوله: يا حي قيوم، وهو توسل بأسماء الله الحسنى، مما يضفي على النص بُعدًا عقديًا راسخًا، إذ يذكّر بأن كل فضل إنما هو من الله، وأن الصلاة على النبي نفسها عبادة يتقرب بها العبد إلى ربه.

ثم يذكر: وآلٍ صحابٍ أعلام، أي آل النبي وصحابته الأعلام، فيؤكد على شمولية دائرة المحبة والتعظيم في التصور الإسلامي، فهي لا تقتصر على النبي وحده، بل تمتد إلى أهل بيته الأطهار وصحابته الأخيار. وهذا يعكس رؤية أهل السنة والجماعة التي تجمع بين محبة الجميع دون إفراط أو تفريط.

ويضيف الشاعر: والقطب الأعظم الأشهر ثم أولياء كرام، فيشير إلى سلسلة الأولياء والصالحين الذين ورثوا عن النبي ﷺ العلم والعمل. وفي السياق الصوفي، يُنظر إلى هؤلاء الأولياء بوصفهم حَمَلة للأنوار المحمدية في كل عصر. وهنا يظهر بوضوح أن الإمام البخاري يُدرج ضمن هذه السلسلة المباركة، بوصفه من كبار الأولياء في ميدان العلم.ثم تأتي اللازمة: سيدنا بخاري إمام لتربط كل ما سبق بالإمام البخاري، وكأن الشاعر يقول: إن إمامة البخاري ليست مستقلة بذاتها، بل هي ثمرة اتصال روحي وعلمي بالنبي ﷺ وبسلسلة الصالحين من بعده.

ومن الناحية الفنية، يمثّل هذا القسم انتقالًا من المدح المباشر إلى الدعاء والابتهال، وهو أسلوب شائع في الأناشيد الصوفية، حيث يمتزج الشعر بالذكر، ويتحوّل النص إلى عبادة جماعية تُنشَد وتُردَّد.كما يعكس هذا القسم حقيقة أساسية في علم الحديث، وهي أن الاشتغال بالسنة ليس مجرد نشاط أكاديمي، بل عبادة يتقرب بها العبد إلى الله. ولذلك كان كبار المحدثين – وعلى رأسهم الإمام البخاري – معروفين بكثرة الصلاة على النبي والتزام الآداب الروحية العالية.

ويحمل هذا القسم رسالة تربوية واضحة: أن طالب علم الحديث ينبغي أن يجمع بين الدقة العلمية والخشوع القلبي، وبين البحث والتحقيق من جهة، والذكر والصلاة على النبي من جهة أخرى. وهذا التوازن هو الذي صنع عظمة الإمام البخاري، وهو الذي تسعى المدرسة الحامدية إلى غرسه في طلابها.ومن خلال هذا القسم يتضح أن النشيد لا يقدّم الإمام البخاري بوصفه عالمًا جافًا، بل بوصفه شخصية روحانية متصلة بالنبي ﷺ وبسلسلة الأولياء،

وهو ما يمنح النص عمقًا صوفيًا واضحًا

القسم السادس: التواضع والدعاء وخاتمة النشيد

نَجِّ عُبَيْدًا أَحْقَرَ ابْنًا نَجْلٌ لِنَحْوِيٍّ سَرِيٍّ أَفْقَهُ الْفُقَهَاءِ

أَوْرَعُ الصُّلَحَاءِ فِي بَلْدَةِ قَاهِرِيٍّ أَجَلُّ الشُّرَفَاءِ النِّحْرِيرِ

يَا رَبِّ بُلَّ بِوَابِلٍ رَمْسَهُ رَمْسَ الْإِمَامْ سَيِّدِنَا بُخَارِيْ إِمَامْ

يمثّل هذا القسم ذروة النشيد من الناحية الروحية، حيث ينتقل الشاعر من مقام المدح والوصف إلى مقام التذلل والدعاء، وهو انتقال مقصود في البناء الصوفي للنصوص الإنشادية. فبعد أن عرّف بالمقام العلمي والروحي للإمام البخاري، وبعد أن ربطه بالنبي ﷺ وبسلسلة الأولياء، يعود الشاعر إلى نفسه بوصفه عبدًا فقيرًا محتاجًا إلى رحمة الله.

فقوله: نجِّ عبيدًا أحقر ابنًا يحمل معنى التواضع الكامل، إذ يصف الشاعر نفسه بأوصاف تدل على الانكسار بين يدي الله، وهي سمة بارزة في أدبيات التصوف، حيث يرى السالك نفسه مقصرًا مهما بلغ من العلم والعمل. وهذا التواضع لا يدل على احتقار الذات بمعناه السلبي، بل على إدراك عظمة الله وكماله، ومحدودية العبد وضعفه.

ويضيف: نجل لنحوي سري أفْقَهُ الفقهاءِ أورع الصلحاءِ، فيعرّف بنفسه من خلال الانتساب العلمي والروحي، فيشير إلى والده أو شيخه بوصفه عالمًا فقيهًا ورعًا. وهذا الأسلوب يعكس تقدير الشاعر لسلسلة العلماء الذين تلقى عنهم العلم، ويؤكد أن العلم في التصور الإسلامي ميراث متصل الحلقات.

ثم يذكر: في بلدة قاهري أجل الشرفاء النهرير، وهي إشارة إلى البيئة العلمية التي نشأ فيها، وإلى المكانة التي يحظى بها أهل العلم في مجتمعه. فكلمة النهرير تدل على العالِم المتبحّر، مما يعكس تقدير الشاعر لأهل المعرفة.

ويأتي بعد ذلك الدعاء بقوله: يا رب بلّ بوابل رمسه رمس الإمام سيدنا بخاري إمام. وهذا الدعاء يحمل معنيين متداخلين: الأول الدعاء للشاعر نفسه، والثاني الدعاء للإمام البخاري، حيث يسأل الله أن يفيض رحمته على قبر الإمام، وأن يجعل له نصيبًا من بركاته.

وهذا الأسلوب يعكس رؤية صوفية ترى أن التوسل بمحبة الأولياء والعلماء الصالحين سبب لنيل رحمة الله، لا بمعنى الاستقلال عن الله، بل باعتبارهم عبادًا مقرّبين إلى الله.ومن الناحية الفنية، يشكّل هذا القسم خاتمة متوازنة للنشيد، إذ يجمع بين الاعتراف بالفضل لأهله، والتواضع، والدعاء، وهو ما يمنح النص بعدًا تعبديًا واضحًا.كما أن هذا القسم يعكس جانبًا مهمًا من شخصية الشاعر العالم الحاج النحوي أي ال متو وابا الفاسي رحمه الله، وهو الجمع بين العلم والتواضع، وبين الفخر بالانتساب إلى العلم، والانكسار بين يدي الله.

ومن خلال هذا الختام، تتكامل صورة النشيد بوصفه نصًا يجمع بين المدح النبوي، والتقديس الحديثي، والتربية الصوفية، والانتماء الجماعي، والتواضع الفردي. وهذا التكامل هو ما يمنح النشيد قيمته الأدبية والعلمية.

الخاتمة

يبيّن هذا الشرح أن نشيد «سيدنا الإمام البخاري» ليس مجرد نص إنشادي في المدح، بل هو بناء أدبي متكامل يجمع بين تعظيم السنة النبوية، وإبراز المكانة العلمية للإمام البخاري، وترسيخ القيم الصوفية القائمة على المحبة والتزكية والتواضع. وقد نجح الشاعر العالم الحاج النحوي أي ال متو وابا الفاسي رحمه الله في صياغة نشيد يجمع جمال العبارة بعمق الدلالة، ليبقى شاهدًا على امتزاج الشعر بالعلم، والإنشاد بالتربية، في إطار المدرسة الحامدية ورسالتها العلمية والروحية.

المراجع والمصادر

- القرآن الكريم
- ديوان الشاعر العالم الحاج النحوي أي المتووابا الفاسي رحمه الله مخطوط محفوظ لدى أسرة الشاعر
- مقابلات مع مؤسس ومشايخ وأساتذة المدرسة الحامدية بحوث سابقة عن الكليات العربية في تامل نادو

*****